المهذب

في تفسير سورة الملك

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

((حقوق الطبع لكل مسلم))

الطبعة الأولى

(بهانج دار المعور))

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ،القائل في محكم التنزيل {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (١) سورة الملك.

وأصلي وأسلم على خير خلق الله محمد بن عبد الله ، القائل : « إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ثَلاَثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ وَهِىَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ».[1]

وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فكلنا يعلمُ فضائل سورة الملك ، وهي متداولة بين المسلمين ، فهذه السورة ذات الثلاثين آية لها مكانة كبيرة في نفوس السلف والخلف .

وقد قمت بتفسيرها منذ عشرين سنة ، تفسيرا موجزا ، ولم تتسن الظروف لنشره حين ذاك . وقد قمت اليوم بجمع تفسير لها أطول من الأول بكثير ،وقد قسمته لسبعة مباحث على الشكل التالي :

المبحث الأول– حول مكيتها وعدد آياتها من عدة تفاسير

المبحث الثاني–أسماؤها ، بشكل مفصل من عدة تفاسير

المبحث الثالث–مناسبتها لما قبلها من عدة تفاسير

المبحث الرابع–أهم الموضوعات التي اشتملت عليها السورة من عدة تفاسير

المبحث الخامس– فضائل السورة ، وقد استقصيتها من مظانها وقمت بتخريجها والحكم المناسب عليها .

المبحث السادس– تفسيرها، وهو أكبر المباحث وعمدة الكتاب ، فقد قسمت السورة لستتة موضوعات رئيسة كل موضوع في مطلب وهي :

المطلب الأول–بعض أدلة القدرة الإلهية

[1] – سنن الترمذى– المكتر – (٣١٣٤) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

المطلب الثاني–تعذيب الكفار العصاة

المطلب الثالث–وعد المؤمنين بالمغفرة وتهديد الكافرين مرة أخرى

المطلب الرابع–أنواع من الوعيد والتهديد والعبرة بالأمم السابقة

المطلب الخامس–توبيخ المشركين على عبادة الأصنام وإثبات قدرة اللّه واختصاصه بعلم

المطلب السادس–دعاء كفار مكة على النبي ﷺ والمؤمنين بالهلاك

وقد قسمت كل مطلب إلى الأمور التالية :

شرح الكلمات بشكل موجز –من كلمات القرآن للشيخ غازي الدروبي

البلاغة – بشكل موجز من التفسير المنير ، ومن صفوة التفاسير وإعراب القرآن وبيانه لدرويش

المعنى العام – غالبا من تفسير المراغي ، والتفسير الواضح

التفسير والبيان – من التفسير المنير مع تعديلات كثيرة من تفاسير أخرى ولاسيما التفسير القرآني بالقرآن

ومضات عامة– من تفاسير منوعة وغالبها من تفسير القاسمي ودروزة ، والوسيط ، والشنقيطي والألوسي ، والظلال وغيرها

ما يستفاد من الآيات – من التفسير المنير وأيسر التفاسير

وزدت في المطالب التالية مناسبة الآيات – من التفسير المنير غالباً

وزدت في المطلب الخامس– ثمرات الإيمان باليوم الآخر

المبحث السادس–مقاصد السورة بشكل مختصر من تفسير المراغي

المبحث السابع– الثمرات العملية لسورة الملك – وهي ثماني عشرة ثمرة بحيث صار تفسيرا واضحاً وشاملاً وموضوعيا لها .

وقد عقبت على بعض الأخطاء والأوهام .

فإن أصبت ، فبه ونعمت والفضل لله وحده ،وإن أخطأت فمن تقصيري وأستغفر الله .

قال تعالى : {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} (٥٣) سورة النحل

فكل ما هم فيه من نعم ، هو من عند اللّه .. حياتهم التي يحيونها ..وحواسّهم ، وجوارحهم ، ونومهم ويقظتهم ، وطعامهم وشرابهم ، وما بين أيديهم من مال وبنين .. كل هذا ، وأضعاف هذا مما يتقلبون فيه ، ويقيمون وجودهم عليه ، هو من عطاء اللّه ، ومن فضل اللّه ، ومن رحمة اللّه ..[٢]

لذا أسأل الله تعالى أن ينفع به معَّده وقارئه وناشره والدال عليه في الدارين

جمعه وأعده

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

في ٢٧ ربيع الأول ١٤٣٠ الموافق ل٢٣/٣/٢٠٠٩م

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٢] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٧ / ٣٠٨)

المبحث الأول

حول مكيتها وعدد آياتها

هي مكية قال ابن عطية والقرطبي: باتفاق الجميع.[٣]

وهي السادسة والسبعون في عداد نزول السور نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الحاقة.وآيها في عد أهل الحجاز إحدى وثلاثون وفي عد غيرهم ثلاثون.[٤]

وفي التفسير الوسيط : " سورة « الملك » من السور المكية الخالصة ".[٥]

****

[٣] – تفسير القرطبي ـــ موافق للمطبوع – (١٨ / ٢٠٥)

[٤] – التحرير والتنوير لابن عاشور – (٢٩ / ٥)

[٥] – التفسير الوسيط للقرآن الكريم–موافق للمطبوع – (١٥ / ٥)

المبحث الثاني

أسماؤها

سماها النبي ﷺ "سورة تبارك الذي بيده الملك".[٦]

فهذا تسمية للسورة بأول جملة وقعت فيها فتكون تسمية بجملة كما سمي ثابت بن جابر تأبط شرا. ولفظ سورة مضاف إلى تلك الجملة المحكية.

وسميت أيضا "تبارك الملك" بمجموع الكلمتين في عهد النبي ﷺ وبسمع منه[٧]

يكون اسم السورة مجموع هذين اللفظين على طريقة عدِّ الكلمات في اللفظ دون إضافة إحداهما إلى الأخرى مثل تسمية لام ألف.

والشائع في كتب السنَّة وكتب التفسير وفي أكثر المصاحف تسمية هذه السورة **سورة الملك** وكذلك ترجمها الترمذي: باب ما جاء في فضل سورة الملك[٨].

وكذلك عنونها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه[٩] .

وأخرج الطبراني عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ، قَالَ:كُنَّا نُسَمِّيهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَانِعَةَ [١٠]، أي أخذا من وصف النبي ﷺ إياها بأنها المانعة المنجية كما في حديث الترمذي المذكور آنفا وليس بالصريح في التسمية.

وفي الإتقان عن تاريخ ابن عساكر من حديث أنس أن رسول الله ﷺ سماها "المنجية"[١١] ولعل ذلك من وصفه إياها بالمنجية في حديث الترمذي وليس أيضا

---

[٦] – سنن الترمذى– المكتر – (٣١٣٤) حسن وسيمر لفظه في فضائلها

[٧] – سنن الترمذى– المكتر – (٣١٣٣) حسن وسيمر لفظه في فضائلها

[٨] – باب مَا جَاءَ فِى فَضْلِ سُورَةِ الْمُلْكِ. (٩) سنن الترمذى– المكتر – (١١ / ٦٧)

[٩] صحيح البخارى– المكتر – (١٦ / ٢٨٥) ٦٧ – سورة الْمُلْكِ

[١٠] – المعجم الكبير للطبراني – (٨ / ٤٨١) (١٠١٠٥) حسن

[١١] – تاريخ دمشق لابن عساكر – (٦ / ٤٦) ومسند البزار كاملا – (٢ / ٢١٢) (٥٣٠٠) وفيه قصة وسيرد

بالصريح في أنه اسم.،وفي الإتقان عن كتاب جمال القراء تسمَّى أيضا الواقية، وتسمى المانعة بصيغة المبالغة.

وذكر الفخر: أن ابن عباس كان يسميها المجادلة لأنها تجادل عن قارئها عند سؤال الملكين و لم أره لغير الفخر[١٢].فهذه ثمانية أسماء سميت بها هذه السورة.[١٣]

وفي التفسير المنير : " سميت سورة الملك لافتتاحها بتقديس وتعظيم اللّه نفسه الذي بيده الملك – ملك السموات والأرض ، وله وحده مطلق السلطان ، والتصرف في الأكوان كيفما يشاء ، يحيي ويميت ، ويعز ويذل ، ويغني ويفقر ، ويعطي ويمنع. وتسمى السورة أيضا «الواقية» و«المنجية» لأنها تقي وتنجي من عذاب القبر وتشفع لصاحبها ...

وكان ابن عباس يسميها «المجادلة» لأنها تجادل عن قارئها في القبر."[١٤]

****

[١٢] – قلت : بل ورد ذلك عنه كما في اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشـــرة – (٦ / ٩٦) [٥٨٧١] ومسند عبد بن حميد – (٦٠٤) وفيه ضعف

[١٣] – التحرير والتنوير لابن عاشور – (٢٩ / ٥) وانظر التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١٥ / ١٠٤٣)

[١٤] – التفسير المنير ـــ موافقا للمطبوع – (٢٩ / ٥)

المبحث الثالث

مناسبتها لما قبلها

كانت الآيات التي ختمت بها سورة « التحريم » السابقة على هذه السورة ، معرضا للصراع بين الخير والشر ، والحرب بين الإيمان ، والكفر ـــ فيما كان من امرأة نوح وامرأة لوط ،وخروجهما من المعركة خاسرتين كافرتين .. ثم ما كان من امرأة فرعون ، وصراعها مع قوى الشر المحدقة بها من كل جهة ، ثم انتصارها ، وخروجها من وسط هذا الظلام المطبق ، إلى حيث النور والهدى ..ثم كان مما بدئت به سورة « الملك » قوله تعالى : « الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » ليقرر أن نتيجة هذا الصراع بين المحقّين والمبطلين ، والمحسنين والمسيئين ـــ إنما تظهر على حقيقتها كاملة يوم القيامة ، ولهذا كان مما قضت به حكمة اللّه سبحانه وتعالى أن يكون موت ، ثم تكون حياة بعد هذا الموت ، ليحاسب الناس على ما عملوا فى الدنيا ، من خير أو شر ..فكان من المناسب أن تلتقى هذه الحقيقة التي قررتها سورة « الملك » مع تلك الحقيقة التي ختمت بها سورة « التحريم ».. وبذلك يتأكد المراد منهما معا.[١٥]

وفي التفسير المنير : " وجه تعلق هذه السورة بما قبلها من وجهين :

١ – وجه عام : وهو أن هذه السورة تؤكد مضمون السورة السابقة في جملتها ، فالسورة المتقدمة تبيّن مدى قدرة اللّه وهيمنته وتأييده لرسوله محمد ﷺ في مواجهة احتمال ظهور تآمر امرأتين ضعيفتين من نسائه عليه ، وهذه السورة توضح بصيغة عامة أن بيد اللّه ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وأنه القدير على كل شيء.

٢ – وجه خاص : وهو أنه تعالى ذكر في أواخر «التحريم» مثالين فريدين متمثلين بامرأتي نوح ولوط للكافرين ، وبامرأة فرعون المؤمنة ، ومريم العذراء البتول للمؤمنين ، وهذه السورة تدل على إحاطة علم اللّه تعالى وتدبيره وإظهاره في خلقه

---

[١٥] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١٥ / ١٠٤٣)

ما يشاء من العجائب والغرائب ، فإن كفر امرأتي نوح ولوط لم يمنع اتصالهما بنبيين كريمين ، وإيمان امرأة فرعون ، لم يضر به اتصالها بفرعون الطاغية الجبار العنيد ،كما لم يزعزع إيمان مريم حملها غير المعهود بعيسى عليه السلام. [١٦]

وقال الآلوسي : " وجه مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ضرب مثلا للكفار بتينك المرأتين المحتوم لهما بالشقاوة وإن كانتا تحت نبيين عظيمين ومثلا للمؤمنين بآسية ومريم وهما محتوم لهما بالسعادة وإن أكثر قومهما كفار ، افتتح هذه بما يدل على إحاطته عز وجل وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه. وقيل إن أول هذه متصل بقوله تعالى آخر الطلاق اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ [الطلاق : ١٢] لما فيه من مزيد البسط لما يتعلق بذلك وفصل بسورة التحريم لأنها كالقطعة من سورة الطلاق والتتمة لها "[١٧]

****

[١٦] – التفسير المنير ــ موافقا للمطبوع – (٢٩ / ٥) وانظر تفسير الشيخ المراغى ــ موافقا للمطبوع – (٢٩ / ٣)

[١٧] – روح المعانى ــ نسخة محققة – (١٥ / ٣)

المبحث الرابع

أهم الموضوعات التي اشتملت عليها السورة

قال ابن عاشور :

" والأغراض التي في هذه السورة جارية على سنن الأغراض في السور المكية.

ابتدأت بتعريف المؤمنين معاني من العلم بعظمة الله تعالى وتفرده بالملك الحق؛ والنظر في إتقان صنعه الدال على تفرده بالإلهية فبذلك يكون في تلك الآيات حظ لعظة المشركين.

ومن ذلك التذكير بأنه أقام نظام الموت والحياة لتظهر في الحالين مجاري أعمال العباد في ميادين السبق إلى أحسن الأعمال ونتائج مجاريها.

وأنه الذي يجازي عليها.

وانفراده بخلق العوالم خلقا بالغا غاية الإتقان فيما تراد له.

وأتبعه بالأمر بالنظر في ذلك وبالإرشاد إلى دلائله الإجمالية وتلك دلائل على انفراده بالإلهية.

متخلصا من ذلك إلى تحذير الناس من كيد الشياطين، والارتباق معهم في ربقة عذاب جهنم وأن في اتباع الرسول ﷺ نجاة من ذلك وفي تكذيبه الخسران، وتنبيه المعاندين للرسول ﷺ إلى علم الله بما يحوكونه للرسول ظاهرا وخفية بأن علم الله محيط بمخلوقاته.

والتذكير بمنَّة خلق العالم الأرضي، ودقة نظامه، وملاءمته لحياة الناس، وفيها سعيهم ومنها رزقهم.

والموعظة بأن الله قادر على إفساد ذلك النظام فيصبح الناس في كرب وعناء يتذكروا قيمة النعم بتصور زوالها.

وضرب لهم مثلا في لطفه تعالى بهم بلطفه بالطير في طيرانها.

وأيسهم من التوكل على نصرة الأصنام أو على أن ترزقهم رزقا.

وفظع لهم حالة الضلال التي ورطوا أنفسهم فيها.

ثم وبخ المشركين على كفرهم نعمة الله تعالى وعلى وقاحتهم في الاستخفاف بوعيده وأنه وشيك الوقوع بهم.

ووبخهم على استعجالهم موت النبي ﷺ ليستريحوا من دعوته.

وأوعدهم بأنهم سيعلمون ضلالهم حين لا ينفعهم العلم، وأنذرهم بما قد يحلُّ بهم من قحط وغيره".[١٨]

وفي التفسير الواضح :

"وهي مكية على الصحيح ، وعدد آياتها ثلاثون آية ، وتشتمل كأخواتها المكيات على إثبات وجود اللّه ببيان مظاهر قدرته وعلمه،وقد تعرضت لما يلاقيه الناس يوم القيامة ، ولبيان بعض نعمه على عباده ، والسورة على العموم تدور حول بيان النعم.[١٩]

وقال في التفسير الوسيط :

" والسورة الكريمة زاخرة بالحديث عن أدلة وحدانية اللّه – تعالى – وقدرته وعن مظاهر فضله ورحمته بعباده ، وعن بديع خلقه في هذا الكون ، وعن أحوال الكافرين ، وأحوال المؤمنين يوم القيامة ، وعن وجوب التأمل والتدبر في ملكوت السموات والأرض .. وعن الحجج الباهرة التي لقنها – سبحانه – لنبيه ﷺ لكي يقذف بها في وجوه المبطلين ، والتي تبدأ في بضع آيات بقوله – تعالى – قُلْ.ومن ذلك قوله – سبحانه – : قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا به ، وَعَلَيْه تَوَكَّلْنا ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ.، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ.[٢٠]

وقال دروزة :

" وفي السورة لفت نظر إلى عظمة اللّه وقدرته في مشاهد الكون ونواميسه ، وتقرير كون اللّه إنما خلق الناس وقدّر عليهم البعث بعد الموت لاختبارهم. وتذكير

---

[١٨] – التحرير والتنوير لابن عاشور – (٢٩ / ٥)

[١٩] – التفسير الواضح ــ موافقا للمطبوع – (٣ / ٧٠٩)

[٢٠] – التفسير الوسيط للقرآن الكريم–موافق للمطبوع – (١٥ / ٥)

بأفضال اللّه ونعمه على الناس. ووصف لمصير الكفار والمؤمنين الأخروي ، وحملة تنديد وإنذار على الكفار وردود على ما كانوا يقولونه في مواقف الجدل مع النبي ﷺ . وآياتها منسجمة متوازنة مما يسوغ القول بوحدة نزولها." [٢١]

وقال الصابوني :

" سورة الملك من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية ، التي تعالج موضوع العقيدة في أصولها الكبرى ، وقد تناولت هذه السور أهدافا رئيسية ثلاثة وهي (إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة . . وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين . . ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور) .

ابتدأت السورة الكريمة بتوضيح الهدف الأول ، فذكرت أن الله جل وعلا بيده الملك والسلطان،وهو المهيمن على الأكوان ، الذي تخضع لعظمته الرقاب ، وتعنو له الجباه ، وهو المتصرف في الكائنات بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة [تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير] الآيات .

ثم تحدثت عن خلق السموات السبع ، وما زين الله به السماء الدنيا من الكواكب الساطعة ، والنجوم اللامعة ، وكلها أدلة على قدرة الله ووحدانيته [الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . .] الآيات .

ثم تناولت الحديث عن المجرمين بشيء من الإسهاب،وهم يرون جهنم تتلظى ، وتكاد تتقطع من شدة الغضب،والغيظ على أعداء الله،وقارنت بين مآل الكافرين والمؤمنين،على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب [إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور . .] الآيات .

وبعد أن ساقت بعض الأدلة والشواهد على عظمة الله وقدرته ، حذرت من عذابه وسخطه ، أن يحل بأولئك الكفرة الجاحدين [ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . .] الآيات .

---

[٢١] – التفسير الحديث لدروزة– موافق للمطبوع – (٥ / ٣٧٣)

وختمت السورة الكريمة بالإنذار والتحذير للمكذبين بدعوة الرسول (ﷺ)، من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت الرسول (ﷺ) ، وهلاك المؤمنين [قل أرآيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم] ؟ الآيات ، ويا له من وعيد شديد ، ترتعد له الفرائص !! .[٢٢]

وفي التفسير المنير :

" سورة الملك كسائر السور المكية تعنى بأصول العقيدة الأساسية وهي إثبات وجود اللّه ، وعظمته ، وقدرته على كل شيء والاستدلال على وحدانيته ، والإخبار عن البعث والحشر والنشر.

بدئت بالحديث عن تمجيد اللّه سبحانه ، وإظهار عظمته ، وتفرده بالملك والسلطان ، وهيمنته على الأكوان ، وتصرفه في الوجود بالإحياء والإماتة (الآيات : ١ – ٢).

ثم أكدت الاستدلال على وجود اللّه عز وجل بخلقه السموات السبع ، وما زيّنها به من الكواكب والنجوم المضيئة ، وتسخيرها لرجم الشياطين ونحو ذلك من مظاهر قدرته وعلمه (الآيات : ٣ – ٥) مما يدل على أن نظام العالم نظام محكم لا خلل فيه ولا تغاير.

ومن مظاهر قدرته تعالى : إعداد عذاب جهنم للكافرين ، وتبشير المؤمنين بالمغفرة والأجر الكبير ،وذلك جمع بين الترهيب والترغيب على طريقة القرآن الكريم (الآيات : ٦ – ١٢).

ومن مظاهر علمه وقدرته ونعمه : علمه بالسر والعلن ، وخلقه الإنسان ورزقه ، وتذليل الأرض للعيش الهني عليها وحفظها من الخسف ، وحفظ السماء من إنزال الحجارة المحرقة المدمرة للبشر ، كما دمرت الأمم السابقة المكذبة رسلها ، وإمساك الطير ونحوها من السقوط ، وتحدي الناس أن ينصرهم غير اللّه إن أراد عذابهم (الآيات : ١٣ – ٢٠).

---

[٢٢] – صفوة التفاسير ـــ للصابوني – (٣ / ٣٧٧)

وأردفت ذلك في الخاتمة بإثبات البعث ، وحصر علمه باللّه تعالى ، وإنذار المكذبين بدعوة الرسول ﷺ ، وتحذيرهم من إيقاع العذاب بهم ، وإعلان وجوب التوكل على اللّه ، والتهديد بتغوير الماء الجاري في الأنهار والينابيع دون أن يتمكن أحد بإجرائه والإتيان ببديل عنه (الآيات : ٢٥ – ٣٠).

والخلاصة : أن السورة إثبات لوجود اللّه تعالى ووحدانيته ببيان مظاهر علمه وقدرته ، وإنذار بأهوال القيامة ، وتذكير بنعم اللّه على عباده ، وربط الرزق بالسعي في الأرض ثم التوكل على اللّه تعالى. [٢٣]

وفي الظلال :

" هذ الجزء كله من السور المكية. كما كان الجزء الذي سبقه كله من السور المدنية. ولكل منهما طابع مميز ، وطعم خاص .. وبعض مطالع السور في هذا الجزء من بواكير ما نزل من القرآن كمطلع سورة «المدثر» ومطلع سورة «المزمل». كما أن فيه سورا يحتمل أن تكون قد نزلت بعد البعثة بحوالي ثلاث سنوات كسورة «القلم».

وبحوالي عشر سنوات كسورة «الجن» التي يروى أنها نزلت في عودة رسول اللّه – ﷺ – من الطائف ، حيث أوذي من ثقيف. ثم صرف اللّه إليه نفرا من الجن فاستمعوا إليه وهو يرتل القرآن ، مما حكته سورة الجن في هذا الجزء[٢٤]. وكانت هذه الرحلة بعد وفاة خديجة وأبي طالب قبيل الهجرة بعام أو عامين. وإن كانت هناك رواية أخرى هي الأرجح بأن السورة نزلت في أوائل البعثة.

والقرآن المكي يعالج – في الغالب – إنشاء العقيدة. في اللّه وفي الوحي ، وفي اليوم الآخر. وإنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه. والتعريف بالخالق تعريفا يجعل الشعور به حيا في القلب ، مؤثرا موجها موحيا بالمشاعر اللائقة بعبد يتجه إلى رب ، وبالأدب الذي يلزمه العبد مع الرب ،

---

[٢٣] – التفسير المنير ـــ موافقا للمطبوع – (٢٩ / ٦)

[٢٤] – انظر خبر إسلام الجن سنن الترمذى- المكتر – (٣٦٤١) وصحيح ابن حبان – (١٤ / ٤٥٩)(٦٥٢٦)

وبالقيم والموازين التي يزن بها المسلم الأشياء والأحداث والأشخاص. وقد رأينا نماذج من هذا في السور المكية السابقة ، وسنرى نماذج منه في هذا الجزء.

والقرآن المدني يعالج – في الغالب – تطبيق تلك العقيدة وذاك التصور وهذه الموازين في الحياة الواقعية وحمل النفوس على الاضطلاع بأمانة العقيدة والشريعة في معترك الحياة ، والنهوض بتكاليفها في عالم الضمير وعالم الظاهر سواء. وقد رأينا نماذج من هذا في السور المدنية السابقة ومنها سور الجزء الماضي.

وهذه السورة الأولى – سورة تبارك – تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود. تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود ، إلى عوالم في السماوات ، وإلى حياة في الآخرة. وإلى خلائق أخرى غير الإنسان في عالم الأرض كالجن والطير ، وفي العالم الآخر كجهنم وخزنتها. وإلى عوالم في الغيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم ، فلا تستغرق في الحياة الحاضرة الظاهرة ، في هذه الأرض.

كما أنها تثير في حسهم التأمل فيما بين أيديهم وفي واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين.

وهي تهز في النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها وتفتح المنافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون ، وأغوار النفس ، وطباق الجو ، ومسارب الماء ، وخفايا الغيوب ، فترى هناك يد اللّه المبدعة ، وتحس حركة الوجود المنبعثة من قدرة اللّه. وتؤوب من الرحلة وقد شعرت أن الأمر أكبر ، وأن المجال أوسع. وتحولت من الأرض – على سعتها – إلى السماء. ومن الظواهر إلى الحقائق. ومن الجمود إلى الحركة. مع حركة القدر ، وحركة الحياة ، وحركة الأحياء.

الموت والحياة أمران مألوفان مكروران. ولكن السورة تبعث حركة التأمل فيما

وراء الموت والحياة من قدر اللّه وبلائه ، ومن حكمة اللّه وتدبيره : «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ».

والسماء خلق ثابت أمام الأعين الجاهلة لا تتجاوزه إلى اليد التي أبدعته ، ولا تلتفت لما فيه من كمال. ولكن السورة تبعث حركة التأمل والاستغراق في هذا الجمال والكمال وما وراءها من حركة وأهداف : «الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً. ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ؟ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ .. وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ ..».

والحياة الدنيا تبدو في الجاهلية غاية الوجود ، ونهاية المطاف. ولكن السورة تكشف الستار عن عالم آخر هو حاضر للشياطين وللكافرين. وهو خلق آخر حافل بالحركة والتوفز والانتظار : «وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ. وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ. تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ. كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قالُوا : بَلى ! قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا : ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ وَقالُوا : لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ!».

والنفوس في الجاهلية لا تكاد تتجاوز هذا الظاهر الذي تعيش فيه ، ولا تلقي بالا إلى الغيب وما يحتويه. وهي مستغرقة في الحياة الدنيا محبوسة في قفص الأرض الثابتة المستقرة. فالسورة تشد قلوبهم وأنظارهم إلى الغيب وإلى السماء وإلى القدرة التي لم ترها عين ، ولكنها قادرة تفعل ما تشاء حيث تشاء وحين تشاء وتهز في حسهم هذه الأرض الثابتة التي يطمئنون إليها ويستغرقون فيها «إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ. وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ. أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ؟ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَناكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ. أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ

بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ؟ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً؟ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ»..

والطير. إنه خلق يرونه كثيرا ولا يتدبرون معجزته إلا قليلا. ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتتدبر ، وترى قدرة اللّه الذي صور وقدر : «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ؟ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ».

وهم آمنون في دارهم ، مطمئنون إلى مكانهم ، طمأنينة الغافل عن قدرة اللّه وقدره. ولكن السورة تهزهم من هذا السبات النفسي ، بعد أن هزت الأرض من تحتهم وأثارت الجو من حولهم ، تهزهم على قهر اللّه وجبروته الذي لا يحسبون حسابه : «أَمَّنْ هذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ؟ إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ».

والرزق الذي تناله أيديهم ، إنه في حسهم قريب الأسباب ، وهي بينهم تنافس وغلاب. ولكن السورة تمد أبصارهم بعيدا هنالك في السماء ، ووراء الأسباب المعلومة لهم كما يظنون : «أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ؟ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ» ..

وهم سادرون في غيهم يحسبون أنهم مهتدون وهم ضالون. فالسورة ترسم لهم حقيقة حالهم وحال المهتدين حقا ، في صورة متحركة موحية : «أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى ؟ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ؟».

وهم لا ينتفعون بما رزقهم اللّه في ذوات أنفسهم من استعدادات ومدارك ولا يتجاوزون ما تراه حواسهم إلى التدبر فيما وراء هذا الواقع القريب. فالسورة تذكرهم بنعمة اللّه فيما وهبهم ، وتوجههم إلى استخدام هذه الهبة في تنور المستقبل المغيب وراء الحاضر الظاهر ، وتدبر الغاية من هذه البداية : «قُلْ : هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ. قُلْ : هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» ..وهم يكذبون بالبعث والحشر ،

ويسألون عن موعده. فالسورة تصوره لهم واقعا مفاجئا قريبا يسوؤهم أن يكون : «وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ؟ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَقِيلَ : هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ!» ..

وهم يتربصون بالنبي - ﷺ - ومن معه أن يهلكوا فيستريحوا من هذا الصوت الذي يقض عليهم مضجعهم بالتذكير والتحذير والإيقاظ من راحة الجمود! فالسورة تذكرهم بأن هلاك الحفنة المؤمنة أو بقاءها لا يؤثر فيما ينتظرهم هم من عذاب اللّه على الكفر والتكذيب ، فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم وحالهم قبل ذلك اليوم العصيب : «قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ؟ قُلْ : هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ».

وتنذرهم السورة في ختامها بتوقع ذهاب الماء الذي به يعيشون ، والذي يجريه هو اللّه الذي به يكفرون! «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ؟» ..إنها حركة. حركة في الحواس ، وفي الحس ، وفي التفكير ، وفي الشعور.ومفتاح السورة كلها ، ومحورها الذي تشد إليه تلك الحركة فيها ، هو مطلعها الجامع الموحي : «تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ..

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التي عرضتها السورة ، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التي نبهت القلوب إليها ..فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة ، وكان الابتلاء بهما. وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوما للشياطين. وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها. وكان العلم بالسر والجهر. وكان جعل الأرض ذلولا للبشر. وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذبين الأولين. وكان إمساك الطير في السماء. وكان القهر والاستعلاء. وكان الرزق كما يشاء. وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة. وكان الذرء في الأرض والحشر.

وكان الاختصاص بعلم الآخرة. وكان عذاب الكافرين. وكان الماء الذي به الحياة وكان الذهاب به عند ما يريد ..فكل حقائق السورة وموضوعاتها ، وكل صورها وإيحاءاتها مستمدة من إيحاء ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير : «تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»!!

وحقائق السورة وإيحاءاتها تتوالى في السياق ، وتتدفق بلا توقف ، مفسرة مدلول المطلع المجمل الشامل ، مما يصعب معه تقسيمها إلى مقاطع![٢٥]

****

[٢٥] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٦ / ٣٦٢٨)

المبحث الخامس

فضائل السورة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنّ رَسُولَ اللَّه ﷺ ، قَالَ : إِنَّ سُورَةً مِنْ كِتَاب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ مَا هِيَ إِلاَّ ثَلاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ فَأَخْرَجَتْهُ مِنَ النَّارِ وَأَدْخَلَتْهُ الْجَنَّةَ ، وَهِيَ سُورَةُ الْمُلْك[٢٦]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ ، قَالَ : " إِنَّ سُورَةً فِي الْقُرْآنِ ثَلاثُونَ آيَةً تَسْتَغْفِرُ لِصَاحِبِهَا حَتَّى يُغْفَرَ لَهُ : تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ؟ فَأَقَرَّ بِهِ أَبُو أُسَامَةَ وَقَالَ : نَعَمْ "[٢٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " فِي الْقُرْآنِ سُورَةٌ ثَلاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ "[٢٨]

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : يُؤْتَى الرَّجُلُ فِي قَبْرِهِ فَتُؤْتَى رِجْلاهُ ، فَتَقُولُ رِجْلاهُ : لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ كَانَ يَقُومُ يَقْرَأُ بِي سُورَةَ الْمُلْك ، ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ صَدْرِهِ أَوْ قَالَ بَطْنِه ، فَيَقُولُ : لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ كَانَ يَقْرَأُ بِي سُورَةَ الْمُلْك ، ثُمَّ يُؤْتَى رَأْسُهُ ، فَيَقُولُ : لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ كَانَ يَقْرَأُ بِي سُورَةَ الْمُلْك ، قَالَ : فَهِيَ الْمَانِعَةُ تَمْنَعُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَهِيَ فِي التَّوْرَاةِ سُورَةُ الْمُلْكِ ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ فَقَدْ أَكْثَرَ وَأَطْنَبَ "[٢٩]

---

[٢٦] – المستدرك للحاكم (٣٨٣٨) صحيح

[٢٧] – صَحِيحُ ابْنِ حِبَّانَ (٧٨٨) صحيح

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَوْلُهُ ﷺ : " تَسْتَغْفِرُ لِصَاحِبِهَا " ، أَرَادَ بِهِ ثَوَابَ قِرَاءَتِهَا ، فَأَطْلَقَ الاسْمَ عَلَى مَا تَوَلَّدَ مِنْهُ وَهُوَ الثَّوَابُ ، كَمَا يُطْلَقُ اسْمُ السُّورَةِ نَفْسِهَا عَلَيْهِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ فِي خَبَرِ أَبِي أُمَامَةَ أَرَادَ بِهِ ثَوَابَ الْقُرْآنِ ، وَثَوَابَ الْبَقَرَةِ ، وَآلِ عِمْرَانَ ، إِذِ الْعَرَبُ تُطْلِقُ فِي لُغَتِهَا اسْمَ مَا تَوَلَّدَ مِنَ الشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ .

[٢٨] – إِثْبَاتُ عَذَابِ القَبْرِ لِلْبَيْهَقِيِّ (١٣٠) حسن

[٢٩] – المستدرك للحاكم (٣٨٣٩) صحيح